يومها استدعى مستشاريه الى مقصورته الخاصة طالبا الرأي والمشورة، وانتهى هؤلاء جميعا الى القول بلسان شيخهم آنئذ الدكتور محمود فوزي :

ـ في مثل هذه اللحظات الحاسمة ليس هناك من رأي يفوق ما يستلهمه القائد المسؤول، وكلنا ثقة بقدرتك على اتخاذ القرار المناسب .

والتاريخ مليء بمثل هذه المواقف ، التي رفعت البعض الى قمم العمالقة ، كما انزلت آخرين الى أسفل سافلين . وليس يحضرني من مثل اروع للتدليل على ذلك من وقفة التناقض التي وقفها كل من ديغول وبيتان من قضية الاحتلال النازي لفرنسا .

الفرق بين الرجلين ، في التحليل النهائي ، كان فرقا في القدرة على رؤية المستقبل ، ولو كان الماريشال بيتان في نظرته أبعد مدى ، بعد تقديره للموقف من كل جوانبه ، لما انتهى الى ما انتهى اليه في قبر مجهول . وبالتالي لما انتهى ديغول الى ما انتهى اليه كأحد آخر عمالقة التاريخ الاوروبي المعاصر .

والقضية ليست قضية حظ او قدر . انها تنطوي كذلك على مجموعة عوامل مادية ، تشكل نفسية القائد وقدرته على الاحتمال والصمود وبديهيا ، أن نشير الى دور المحيطين بالقائد من رفاق ومستشارين والى الاطار السياسي او « الماكينة » السياسية التي يعمل القائد من خلالها سواء من حيث خلفيتها الفكرية وانتمائها الطبقي وتاريخها النضالي وغير ذلك من المقومات الاساسية للفئة المتصدية لقيادة الشعب او البلاد او القضية ، اي قضية .

●

أردت من هذا الحديث كله أن امهد لمقولة متواضعة ، لا نشكل بحد ذاتها اكتشافا جديدا ، وانما أردت التركيز عليها ، بقصد استيعاب العبرة منها . هذه المقولة تتلخص بأن احداث التاريخ ليست جثثا محنطة ولا مواقف معلبة. وبالتالي فانه لا يمكن الاستغناء عن الخيال ، وربما الخيال الشاعري ، في صناعة المستقبل .

مثلان اثنان اسوقهما للشهادة من تاريخنا المعاصر . ثورة الجزائر ، وثورة كوبا . هاتان ثورتان ، عندما هبتا في سبيل تحقيق اهدافهما ، اتهم قادة كل منهما بالجنون والمغامرة . وممن ؟ من الثوريين التقليديين قبل أي فريق اخر . وقبيل النصر بقليل ، وعندما بدأت شمسه تلوح بالافق سقط « التاريخ » بكل حججه . وانتصرت الثورتان . ثم جاء التاريخ اليهما على استحياء يعتبر من تجاربهما ويغذي امعاءه بقوانين جديدة للثورة والثوار .

من غير صاحب خيال جامح كان يتصور ان تتحرر الجزائر قبل فلسطين ، ومن كان يتصور ان يقوم في كوبا النظام الاشتراكي الماركسي قبل انكلترا التي خيبت «بصمودها» المحافظ توقعات ماركس ؟

بديهي انه ما كان ممكنا ان نقول ما نقول الان لو انهزمت الثورتان ، ولربما كانت وقفتنا اليوم من رواد الثورتين وقفة تنديد لا تمجيد . ولكن هذه هي اهم سنن التاريخ وقوانين الحياة وهي ان المنتصر وحده يكتب التاريخ .

●

اذن ليس في التاريخ ما هو ثابت او محنط او معلب . والتاريخ يتقدم ولكن ليس بميكانيكية ذاتية وانما بدفع من خارجه . ولكنه صحيح أيضا ان تقدم التاريخ لا يسير في خط بياني غير متعرج . خط التاريخ تصاعدي ولكنه متعرج ومتذبذب ، يقفز طورا وينحدر طورا وينام في خط تراوحي مستقيم طورا ثالثا ... ولكنه يصعد دائما .